فولتير النساء لكثرة المباحث التي بحثت فيها . وقد قصت بمؤلفاتها تلك غايات من اسمى الغايات احداها توسيع علم الجمال عما كان في زمانها والاخرى مهاجمة فلاسفة فرنسا الماديين كديدرو ودولباش وكندلاك وغيرهم مهاجمة عنيفة زعزعت اركان فلسفتهم والثالثة بث روح الحرية في صدور قومها اذ ابانت لهم ان الحرية اعظم شرط لسلامة الآداب والديانة الصحيحة . وكانت فاضلة تقية ورعة غير متزمتة ومانت في ١٤ تموز ١٨١٧ بعد ان جالت زمانًا في النمسا وروسيا واسوج وبلاد الانكليز الذين كانت تعتبرهم اعتبارًا عظيمًا

السهو والغيبة

ما دام الانسان يقظان يكون عقله مشتغلاً بتفكر وحس اولا حس بحسب ما يشتغل به من الافكار . ولو لم يكن في الانسان قوّة بها يحوّل قوى عقله من التفكّر بشيء الى التفكر بشيء آخر — هي ارادته المتسلطة على عقله فتحوّله من النظر في امر الى النظر في آخر — لكانت الافكار تجري على الدوام بحسب ما يعرض لها من الامور الظاهرة او الباطنة . اما الامور الظاهرة فمتى عرضت للعقل ولم يكن منشغلاً بالنظر في امر داخلي فانها تحوله لنفسها وتغيّر افكارهُ بحسب تغيّرها امام حواسهِ في الخارج . واما الامور الباطنة فمتى عرضت للعقل فانها تحوله اليها وقد تشغله بنفسها عن كل شاغل سواها بحيث لا يشعر بالمؤثرات الخارجية التي تؤثر في حواسهِ او لا يدرك معناها . فيحصل للانسان من اشتغال عقلهِ بالامور الظاهرة او الباطنة على ما قدّمنا حال خلاف حالهِ الاعتيادية في تصديقهِ للامور وشعورهِ بها وعملهِ الذي يعقب ذلك الشعور والتصديق . وقد اصطلحنا على تسمية حالهِ هذه الحاصلة من الامور الظاهرة بالسهو وحالهِ الحاصلة من الامور الباطنة بالغيبة . وكلا الحالين مماثل في الماهيَّة ولكن اعراضها تختلف بحسب مزاج الانسان وعوائدهِ ومدة تاثرهِ بالمؤثرات التي تعرض له غير الشواغل التي تحدثها

ويكثر السهو في الشعراء والغيبة في الفلاسفة والعلماء . اما الشعراء فلان نفوسهم تنبسط اعظم انبساطها في النظر الى محاسن الاشياء فيسلّمون لسلطان الطبيعة ويقيّدون مخيلاتهم بين يديهِ مسبيين بمحاسن هذا المنظر وسحورين ببدائع ذلك المصنع ساهين عن كل مؤثر يؤثر في اذهانهم غير ما هم فيهِ منقطعين عن كل شاغل الى الامر الذي يشغلهم فتحل عُرَى الارادة عن قوى عقولهم وتجري افكارهم على حسب ما تديرها الاشياء الخارجية وتحوّلها تنبيهات المتصرفة تارةً تصعد الى اقصى السماء وطورًا تغوص الى اعماق الماء وتبني ما يبنيها الافدان والقصور وتزوّقها بنهاويل

الظلمة والنور والشعراء في اثناء ذلك ساهون عما حولهم لاهون بحسنها وعظمتها ولو حفّت بهم المكاره والاقدار

واما الفيلسوف فلأن دائرة النظر في افكاره واشغال عقله فيتأمّل فيها اكثر ما يتأمّل في المؤثرات الخارجية التي تؤثّر في حواسه . بل انه كثيرًا ما يصرف انتباههُ عن المؤثّرات الخارجية عمدًا وينقطع بكليتهِ عنها ليتسهّل لهُ التبحّر في افكاره والتأمّل بكل انتباههِ في الهواجس التي تشغل عقلهُ واقامة الادلّة على اثباتها والاقيسة على استنتاج نتيجة منها . ولذلك ترى افكار العالم او الفيلسوف اصحّ في الغالب من افكار الشاعر وادلتهُ اقوى حجّة واصدق بيانًا . الّا انهُ بانقطاعهِ اليها ذلك الانقطاع يغيب عن سواها حتى كانهُ غير قريب منها وكانها لا تؤثّر فيهِ . واذا اثّرت اخطأ تعقّلها وادراكها على وجهٍ يناسب الافكار التي هو منشغلٌ بها وتصرّف في صورها فيحضرها لنسيهِ موافقةً للصور التي هو ناظر فيها عوضًا عن ان تلك المؤثّرات تحوّل افكارهُ عما هي عليها الى افكار تناسبها وتبدل الصور التي في ذهنهِ بالصور التي تنطبق عليها كما هو المعتاد في ادراك البشر . وذلك يحدث كثيرًا وقد ذكرنا طرفًا منهُ في ما بلي لايضاح ما تقدّم

رَوَت احدى جرائد الانكليز التي يركن اليها انهُ كان في مدرسة أبردين الكلية استاذ شهير بالمعرفة وسعة الاطلاع ودقّة البحث اسمهُ الدكتور هملتن ألّف مؤلّفات جمّة فريدة في بلاغتها ووضوح معانيها وحسن نسق تأليفها . الّا انهُ كان يغيب بافكارهِ حتى يتجاوز حدود الاعتدال فاتفق انهُ كان يومًا ماشيًا على الطريق وهو غائص في بحار التأمّل فالتقى بامرأةٍ فوقفت تكلّمهُ فكشف راسهُ على عادة الافرنج عند التحيّة وجعل يعتذر اليها ويسالها عن اسمها قائلاً هل يكون لي الشرف بمعرفة اسم جنابكِ . وكان كثيرًا ما يذهب لتدريس صفوفهِ باكرًا في الصباح وعلى رجلهِ الواحدة جراب امرأتهِ الابيض وعلى رجلهِ الاخرى جرابهُ الاسود . وكثيرًا ما يقضي وقت التدريس غائبًا بافكارهِ عن الطلبة وهو يرفع قلايسهم عن المائدة التي امامهُ وهم يردونها اليها ولا ينتبه لشيءٍ من ذلك . وكثيرًا ما يدعوهم الى بيتهِ فاذا حضروا اجابةً للدعوى يقتصّ منهم زاعمًا انهم حضروا ضحكًا عليهِ . وكان يومًا ماشيًا على الطريق فاصطدم ببقرة فدار نحوها وكشف راسهُ وانحنى قائلاً العفو يا سيدتي فقد كان ذلك رغمًا عني عسى ان لا تكوني قد تألّمتِ . ثم عاد الى نفسهِ فاذا سيدتهُ بقرة فولى مدبرًا خشية ان يكون قد رآهُ احدٌ فيضحك منهُ في وجههِ . ولكنهُ لم يبعد حتى نسي ما فعل وعاد الى هواجسهِ فاتفق انهُ اصطدم بامرأةٍ في معبر ضيق فتأثّر معنفًا وقال تبًّا لكِ من بقرة مشومة ألّا تكفيني شرك اليوم . وكان احيانًا يصطدم باعمدة وعوارض في طريقهِ فيعنفها تعنيفًا شديدًا لانها لم تحد من امامهِ

وكان الفيلسوف اسحق نيوتن يغوص في افكاره وينسى نفسه . قيل انهُ كان ينهض صباحًا ويشرع في لبس ثيابهِ فيدخل يدهُ في احد كميهِ ويبقى كذلك اكثر النهار مفكّرًا . وكان ينسى الطعام فيقضي يومهُ جائعًا ان لم يذكرهُ احدٌ بذلك . وقد ذكرنا بعض نوادرهِ في ترجمتهِ في السنة الاولى من المقتطف

ورووا ان فيلسوفًا كان جالسًا بجانب النار يصطلي فغاص في الافكار واحتدمت النار قربهُ حتى التهبَ فدقَّ جرسًا اشارة الى خادمهِ بان يحضر . فلما حضر قال يا فلان ابعد هذا الكانون من هنا فقد لذعني نارهُ فقال يا مولاي ان الكانون مثبَّت بالحائط فكيف استطيع ابعادهُ فقال وما الحيلة عندك قال ان تبعد كرسيَّك عنهُ قليلاً . فانتبه من غفلتهِ * ودخل خادم على مولاهُ الفيلسوف يومًا وهو غائص في التأمُّل وقال الوحى يا مولاي فان بيتك مشتعل فقال لهُ اخبر مولانك بذلك ألا تعلم اني لا اتداخل في امور البيت

وذكر الدكتور كريتر الشهير الحادثة الآتية وأكَّدها عن العلَّامة كوس الرياضي الجرماني المشهور . قال كان كوس يومًا منصبَّ الفكر على قضيَّةٍ وكانت زوجتهُ مريضة جدًّا وكان يحبها كثيرًا فدخلت اليهِ خادمتهُ وقالت يا سيدي قد ثقل المرض جدًّا على سيدتي فاظهر لها انهُ فهم كلامها فانصرفت والصحيح انهُ لم يفهمهُ او نسيهُ . فعادت اليهِ بعد قليل وقالت ان الحال قد ثقل على سيدتي جدًّا فارجوك ان تبادر اليها فقال اني آتٍ فاسبقيني وعاد فغاب في فيافي فكرهِ ونسي امرأتهُ وما كلفتهُ بهِ الخادمة . فعادت اليهِ ثالثةً وقالت ان سيدتي في حال النزع فان لم تبادر اليها الآن فلا تدركها حيَّةً . فرفع راسهُ واجابها بهدوءٍ قولي لها ان تنتظرني قليلاً فاني آتٍ عن قريب . وربما كان هذا جوابهُ المعتاد لامرأتهِ اذا دعتهُ وهو مشغول

وذكر الشاعر الاسكتلندي ولتر سكوت انهُ كان عشيَّة يوم يقرأ مقالةً في اخلاق صديقهِ الشاعر الانكليزي بيرون بعد موتهِ بقليل ثم قام يريد الخروج من غرفتهِ الى قاعة الدخول وكانت مزينة بجلود الوحوش والسلاح وما شاكل فرأى صديقهُ منتصبًا امامهُ بكامل هيئتهِ واثوابهِ . وكان ولتر سكوت متأكدًا ان عينهُ ترى ما لا وجود لهُ وانهُ تخيل صورة صديقهِ تخيلاً فلبث برهة يتأمَّل اتقان تصوير الخيال لها على عينهِ في هيئتها وتفاصيلها واثوابها والوانها ثم دنا منها فلم يجد الَّا اشعة معلَّقة فعاد الى مكانهِ الاول وافرغ جهدهُ في تصوُّرها بالقصد والارادة فلم يقدر

وكما يجري ذلك في الفرد يجري في الجمهور ايضًا اذا شغل افكارهم شاغلٌ واحدٌ فيتوهمون انهم يرون ما لا وجود لهُ ويسمعون ما ليس لهُ صوت . وقد وقع ذلك مرارًا نذكر منها ما ياتي نقلاً عن بعض الكتبة الذين يوثق بصدقهم ، احترق القصر البلوري بلندن بين سنة ١٨٦٦ و ١٨٦٧

فاحترقت الحيوانات التي فيهِ وماتت وكان بينها قرد من نوع الشمبنزي فظنّ الناظرون انهُ فرّ من قفصهِ فرفعوا ابصارهم نحو السقف منتظرين ان يكون هناك فرأَوهُ يتلوّى تلوّيًا يفتّت الاكباد وهو يحاول ان ينفلت من بين الاضلاع الحديدية فرارًا من عذاب النار. وكانوا ينظرون اليهِ وقلوبهم قد هلعت خوفًا عليهِ من الحريق. فلما احدقوا النظر طويلاً لم يروا الاَّ مصراعًا مكسرًا توهمت عيونهم انهُ قرد يبدن وايدٍ. وذُكِر ايضًا انهُ مات طباخ سفينةٍ وبعد موتهِ بايام رآهُ رفاقهُ يمشي امام السفينة ويجمع كجاري عادتهِ لان احدى رجليهِ كانت اطول من الاخرى فارتاعوا ارتياعًا شديدًا ووجّهوا السفينة اليهِ حتى قربوا منهُ فاذا هو خشبة طافية على وجه الماء

ذوات الاذناب وانقضاء العالم

فلما ظهر كوكب من ذوات الاذناب او حدثت حادثة اخرى من حوادث السماء الاَّ ارجف المرجفون بحلول غضب الله واقتراب نقمتهِ اما بهلاك الارض وما عليها او بضرب سكانها او سكان قطر منها بالجوع والوبا او بابتلائهم ببلية اخرى. ولما كان حجاب الجهل منسوجًا بخيوط الوهم لا يقطع فيهِ الاَّ سيف العلم لم يستطع الناس تمزيق ذلك الحجاب الاَّ بعد ان جردوا عليهِ سيف العلم القاطع. وعليهِ جمعنا في هذه المقالة بعض اراجيف المرجفين التي اقلقوا بها راحة العباد وعاقوها بذوات الاذناب ونحوها من احداث السماء لكي نظهر فسادها وفساد ما يماثلها مما لا يزال ينتشر من حين الى حين. ثم نبين فعل ذوات الاذناب الحقيقي بالارض

لما كانت سنة الالف للميلاد شاع عند المسيحيين في كل الاقطار ان خراب الارض قد دنا وان الشيطان الذي مضى عليهِ الف سنة مقيدًا سيحل من قيودهِ ويدين الناس وينقضي العالم. فهاجت اوهام الجميع وصاروا كلما رأَوا حادثة في السماء قالوا انها طليعة اهلاك ورسول النقمة. وحينئذٍ ظهر كوكب من ذوات الاذناب فقالوا قد أَبرم الامر ودنا يوم العقاب. وسقط نيزك من السماء فقالوا ان السماء انشقت وسقط منها مشعل ملتهب جرّ وراءهُ ذيلاً من النور ظهر بعدهُ تنين عظيم ازرق الغوائم — اوهام ولّدها الخيال وطبعها على صفحات السماء ثم ارتاع منها واخذها دليلاً على غضب الله. وقد مضت سنة الالف وكرّت من بعدها القرون ونحن بمجدهِ تعالى راقدون في بحبوحة الامن لم تخرب دنيانا ولم ينقطع منها نوع الانسان[1]

(1) يظهر من اخبار القدماء ان كثيرين كانوا يتوقعون خراب الارض تلك السنة لا بناء على افلات الشيطان بل لاقتران السيارات في بقعة معلومة من السماء. فقد نقل دبودورس المؤرخ ان قدماء الكلدان قالوا انهُ